تجلّيات الأسطورة في ديوان "كاف ونون" لعلالة القنوني*

د. سامية عليوي
حليمة تومي
جامعة باجي مختار /عنّابة

ملخص البحث

يزخر ديوان "كاف ونون" للشّاعر التّونسي علاّلة القنّوني بموروثات أسطورية (شرقية وغربية)، ويسعى هذا المقال إلى تقصّي تجلّيات هذه الأساطير ومدى تطويع الشّاعر لها لتتماشى ورؤيته الشّعرية.

واتّضح من خلال الدّراسة أنّ الأساطير الغربية كان لها الحظّ الأوفر من التّوظيف، حيث استقى الشّاعر مادّته من شخصيات أسطورية دينية، ومن شخصيات حقيقية تأسطرت، بما أضفاه عليها الأدب من هالات أسطورية.

كما اتّضح أنّ الشّاعر لم يكتفِ بالتّوظيف التّضميني، وإنّما أسقط تلك الشّخصيات الأسطورية المختلفة على الواقع المعيش منتقدا بها الأوضاع العربية المتردّية سياسيا واجتماعيا، مختبئا وراءها لينجو من المتابعات والانتقادات.

Résumé :

Le recueil de poèmes intitulé « Kef wa Noun » de Allala El Guennouni regorge d'éléments mythiques (orientaux et occidentaux). Cet article vise à explorer ces éléments mythiques utilisés par le poète dans ses constructions poétiques.

Nous soulignons dans la présente étude qu'en premier lieu, les mythes sacrés sont les plus répandus chez le poète, puis viennent en second lieu les mythes littéraires représentés par des personnages historiques ou réels mais mythifiés.

Nous mentionnons également que le poète a utilisé des éléments mythiques pour critiquer le vécu actuel arabe tant sur le plan politique que social. Le mythe constitue donc un prétexte afin d'éviter toute friction avec la société et / ou les pouvoirs politiques.

تمهيد:

منح الشّعراء العرب في العصر الحديث والمعاصر مكانةً مركزيةً للأسطورة، فهي الجوهرة التي سطع شعاعها على الشّعر العربي فتألّق وسما في رحاب الفنّ والإبداع، إنّها الفتح الجديد الذي اطلّع الشّباعر العربي-من خلاله- على تجارب إنسانية لم يشهدها من قبل، فوجد نفسه مشدودا إليها وذلك لجاذبيتها وسحرها، فألقى بنفسه في عالمها وهنالك بكى على إنسانيته التي داستها جحافل الإسمنت، وشرب نخب المرارة والألم على مجد العروبة الذي هدّه لهو الأمراء وتحالف الأعداء؛ أمام محراب الآلهة صلّى لأجل الإنسانية والعروبة، ولم تتوانَ الآلهة للحظة عن مساعدته، وبـبُردة الأساطير غطّت قصائده، وعلى ظهر الفينيق حلّق عاليا ليلقي على السّاحة الأدبية قصائد تفيض دلالات، إذا وقعت على السّمع تطرب لها الأذن فتشفى الرّوح من ألمها، ويبصر القلب واقعه فتنزاح الحجب ويتبدّد الظّلام ويتراجع الخوف لصالح الشّجاعة والإقدام.

باستدعاء الأساطير، تغيّرت بنية القصيدة العربية، وأضفت عليها جمالية مميّزة تختلف عن جمالية القصيدة المعهودة، وباتّحادها مع كلمات القصيدة العربية، حملت القصيدة بين طياتها أبعادا جديدة وخلفيات مغايرة، وسطرت أهدافا تخدم القضايا العربية الرّاهنة، وتطرح حلولًا لتخطّي المشاكل والعوائق التي تحول دون إحراز تقدّم على المستوى الثّقافي والسّياسي والاجتماعي.

ومن بين الشّعراء الذين لامس قلبهم سحر الأسطورة الشّباعر التونسي "علاّلة القنّوني" الذي جمع في ديوان "كاف ونون" بين الموروث الأسطوري والدّيني والتّاريخي في صورة فسيفسائية جميلة تعكس جمال روحه ورحابة قلبه الذي ينبض حبا لوطنه تونس وللأمّة العربية جمعاء. فكيف وظّف الشّاعر الأساطير في ديوانه، وما طبيعة هذا التّوظيف؟ وما ألحقه الشّاعر بها من تغيير؟.

التّوظيف الأسطوري في شعر علاّلة القنّوني:

من أرض تونس الخضراء انبثق شعاع التألّق والتميّز من لدن شاعر احترف الكتابة الشّعرية، وأتقن العزف على أوتار أوزانها، ليطربنا بموسيقى إحساسه المرهف،

إنّه الشّاعر "علاّلة القنّوني" الذي شقّ طريقه في درب الشّعر الحداثي، وبني لنفسه مملكة القصيد التي يأوي إليها، وعلى أسلوبه الخاصّ أثّث كلماتها بطريقة تفصح عن شخصيته، وتعكس رؤاه وفلسفته في الحياة، وطرحه الفنّي الذي يتميّز به عمّن سواه من شعراء عصره.

تشكّل تجربته الشّعرية علامة فارقة في حياته التي تطمح إلى الانعتاق من حالة الانكسار والانهزام للمشهد الثّقافي الذي أضحى مرهونا بثقافة الموقف السّياسي المتراجع لدى الشّعوب العربية، ليقدّم بناء فنيا متميّزا، سواء على صعيد البناء اللّغوي والتراكيب والأساليب الفنّية، أو على صعيد الرّؤية وعمقها، أو من ناحية المواضيع التي طرقها والغايات والأهداف التي سطرت من أجلها، كلّ هذا داخل إطار فني جميل متميز، يعبق بالأصالة ويشعّ ببريق المعاصرة.

النّاظر في المتن الشّعري عند "علاّلة القنوني" يلمح روح الالتزام بقضايا الشّعوب العربية ومشاكلها، حيث قدّم وصفة علاجية لألم الانكسار الذي ألمّ بالشّعب العربي، فهو شاعر متمرّد أعلن رفضه للعبودية والجبن، فجاءت أشعاره شعلة أنارت البصائر وأحرقت حجب الظّلام.

يمارس ديوان" كاف ونون" سطوته على القارئ الذي يجد نفسه مشدودا لسحر بيانه، منذ أن يلامس بصره عنوانه المميّز «كاف ونون»، باعتباره العتبة الأولى التي يلج من خلالها إلى النّص، ليعرف المتلقّي أنه أمام ديوان يزخر بالانزياح والمنعطفات الصّعبة، فمن الصعب الولوج إلى بنيته العميقة، أما الحصول على المعنى فهو رحلة مطاردة شاقّة.

اختار الشّاعر لديوانه عنوانا مكوّنا من حرفين وهما: الكاف والنّون، لتحتضن الكون الفسيح، ولتموج بين فلكيهما الإرادة التي تعبّر عنها جملة «كن فيكون»، ذلك القضاء الربّاني المحتم والمحسوم الذي تتجلى من خلاله إرادة الله ومشيئته على عباده، فاستقى شاعرنا هذه الدلالة، وأسقط عليها الأبعاد الدّينية وألبسها أبعادا أخرى

تتماشي وواقعه المعاش، لقد أراد لديوانه هذا أن يكون المنذر المبين، فيدقّ ناقوس الخطر ويصدح بكلمات الثّورة والتمرّد على عصر الجبن والتّراجع في الوقت الذي بسط الصّمت رداءه وهام النّاس في فلكه خاشعين، إلى أن صدح "علاّلة" بصوته وصاح في النّاس أن عودوا إلى رشدكم كفاكم ذلاّ ومهانة، آن لقضاء الله أن يكون، وآن للأمّة العربية أن تعود من جديد وتستفيق من سبات عميق.

وينبع استخدامه لهذا العنوان من وعى بالذّات، وهي معرفة تتميّز عن باقي أشكال المعرفة إن لم نقل أنها أساس المعارف؛ فهي إدراك ضروري، وهي أولى محطّات التغيّر والتّقدم، والشّاعر "علاّلة القنّوني" يتمتع بالوعي الكافي الذي امتزج مع عالمه الإبداعي، ليشكّل لنا في الأخير لوحة فسيفسائية تنمّ عن جمالية فنية، ازدادت بريقا بنفخة الغموض الذي سما به بعيدا عن أسلوب المباشرة متجاوزا حدود الصّورة المألوفة، في لوحة بانورامية تتتابع من خلالها الصّور وتتسلسل بانسياب؛ وما ساعده على ذلك توظيفه للأساطير التي فتحت أمامه باب الخيال على مصراعيه، وانسابت أمامه الدّلالات نهرا فيّاضا يغرف منه ما شاء.

استدعى "علاّلة" الأساطير للتّعبير عن الهموم الاجتماعية والوطنية والقومية والإنسانية، بروح غلب عليها الشّعور بالتفاؤل والأمل، فلم يقنط للحظة، وظلّ ينتظر هبوب نسائم الرّحمة، وقد تنوّعت الرّموز الموظّفة في نصوصه بين الرّموز الأسطورية – سواء كانت ذات أصول شرقية أم غربية– والرّموز الدّينية، والتاريخية، والأدبية...، ليبدع لنا في الأخير نصّا شعريا ينسجم في لغته وحركة إيقاعه، ومنظومة صوره مع تجربة الشّاعر وعمق دلالاتها.

العنقاء:

ركب الشّاعر التونسي "علاّلة القنّوني" جناحي العنقاء، وحلّق بها عاليا في سماء الشعر العربي المعاصر، في محاولة مقصودة منه: «للارتفاع بالقصيدة من تشخُصها الذّاتي إلى إنسانيتها الأشمل والأعم... فالأسطورة توحّد الجزئي والكلّي، ويندمج في كينونتها الذّاتي بالموضوعي، وتتعدّى الوعي المنفرد لتلتصق بالوعي الجمعي» [1]؛

لتكون تجربة "علاّلة" الفنّية الوعاء الذي تفيض من روحه التّجارب الإنسانية التي تعبّر عنها الرّموز الأسطورية مثل رمز "العنقاء" الذي يعبّر عن ثنائية "الموت والانبعاث". و"العنقاء" طائر أسطوري يعمّر زهاء ألف وسبعمائة سنة، تبدأ حياته في الوقت الذي يتمكّن منه الموت، إنّه مثال للحرّية، فهو الذي يقرّر موته، أليس هو من يجمع أشلاء محرقته ويُعِدّ طقوسها بنفسه فيُضرم النّار في العشب، ويدخل تلك المحرقة بكبرياء لتلتهم ألسنة النّيران لباسه الجميل التي ترفّ العين إذا وقعت على حسن ألوانه، لكن ليست هذه النّهاية، بل هي البداية حيث يُبعث مرّة ثانية من ركام رماده عنقاء جديدة، يافعة ساحرة الجمال تحلّق عاليا في الأفق البعيد[2].

تعكس هذه الأسطورة صورة جميلة لتداخل الحضارات وتعانقها، فقد عَرفه الآشوريون واليونانيون الذين أطلقوا عليه اسم "الفينيق" الذي حين يتمّ من حياته خمسمائة سنة: «يبني لنفسه عشّا من أزهار البلوط، أو على قمّة نخلة ويجمع فيه أزهار الطّيب، ثم يشيد لنفسه من ذلك محرقة يضع نفسه فيها ويلفظ أنفاسه الأخيرة بين أريجها، ومن جسدها تنبثق عنقاء أخرى، يكون أوّل عمل لها حين تشبّ وتقوى أن تحمل جسد سلفها بعد لفّه بالعشب المعطّر، ثم تطير إلى معابد مدينة هليوبوليس بمصر ثم تشعل فيه النار»[3].

يعيش الشّاعر المعاصر في هذا الزّمن المضطرب حالة استنفار قصوى، فهو يحيا في صراع دائم بين موت القيم الإنسانية، وبين محاولة إحيائها مرّة ثانية، أعلن البعض استسلامه أمام الحياة وظلّ يندب خيبته ويبكي إنسانيته الضّائعة، وأبى البعض الآخر أن يستسلم للهزيمة، الأمر الذي دفعه إلى إبداع عالم أسطوري يتغلّب فيه الانبعاث على الموت. هذا ما نجده عند الشّاعر "علاّلة القنّوني"، فأشعاره حوت طاقة هائلة من الرّوح الايجابية التي لا تلبث أن تتسلّل إلى روح قارئها، لتشحذه بشحنات من الأمل.

كان لحضور رمز العنقاء في قصائد "علاّلة" لمسة سحرية، تملك فكر الشّاعر، فاندمجت معه واندمج هو معها حتى أضحى يرى نفسه عنقاء، فلبس لبوسها، واحترق كما تحترق، في قصيدة "اشتعال" يقول:

«أنا جئت لكي أمضي
ولكن أترك الأرض بها بحر من الومض
فقد جفّتْ
ولم تسعف
من الماضين
بالنّبض....
لذا أشعلتها حباّ
وأشعلتُ لها نفسي
لكي تنهض في ناري
ولكي في نُورِهَا...
أمْضي.... » (4)

لم يصرّح الشّاعر في قصيدته "اشتعال" باسم العنقاء التي اختبأت بين الكلمات لتمارس مع القارئ لعبة التّخفّي والظّهور. لقد استطاعت العنقاء أن تمارس سطوتها على "علاّلة" الذي أردته صريع سحرها، فلم يجد الشّاعر أجمل منها ملجأ يلوذ إليه، وليعّبر عمّا يختلج في روحه من أحاسيس، فارتدى شاعرنا لبوس "العنقاء" التي تختزل من المعاني ما يكفي ليحتوي اختلاجات نفسه.

فكما أنّ "العنقاء" جاءت إلى العالم لتمضي فيه ولتنهي حياتها على طريقة أعدّتها بنفسها، جاء شاعرنا كذلك ليقدّم حياته فداء لأرضه، وليَهب نفسه وكلماته إلى بلده وإلى العالم العربي ليَنثُر فيه الأمل، وليغرس فيه بذور التّغيير، ليبدّد الحجب أمامه، فيسطع النّور مجددا على هذه الأرض. فقد أراد "علاّلة" أن يكون عنقاء الأرض، أحرق نفسه ليسطع نوره عليها، فيبدّد ظلام المآسي والخذلان؛ ومن رماده

تُبعث من جديد لتمضي في سبيل التقدّم. لقد استدعى الشّاعر "العنقاء" لتكون رمز الشّاعر الملتزم بقضية وطنه، ووهب النّفس والنّفيس في سبيل أن يرى بلاده تمضي نحو العلا وتخطو وراء التّقدم في ثبات.

وفي قصيدة أخرى، يرفع الشّاعر الوشاح عن "الفينيق"، ليعتلي بنية النّص السّطحية فيظهر بشكل جلي في قصيدة " لبيك يا عراق"، فيقول:

«كما طير الفينق يعود حيّا نعود من الرّماد إلى الكيانِ» (5)

في ظلّ الأزمات التي تمر بها البلاد العربية، كان لأزمة العراق تأثير عميق على الأمة العربية التي سقطت بغداد أمام أعينها على يد الأمركيّين؛ قُبيل أفولها كان الأمل يعمّ القلوب العربية التي آمنت بقوة العراق وبصمود رجاله، إنّه الأمل نفسه الذي تغلغل في قلب "علاّلة القنوني" الذي لم يُطِق صبرا للرّد على أعداء الأمة العربية، فجهّز جيش كلماته ومضى قدما لنُصرة العراق، وكان لا بد من استدعاء تجربة أقوى، لذا عاد إلى النّماذج الأصيلة؛ وهنالك استحضر رمزا أقوى، وهو "الفينيق" ليعبّر عن صمود العرب؛ وليحثّ العربي وليزرع فيه الأمل فينتفي من قلبه أيّ شعور بالضّعف، وليقطع الأيدي التي تطاولت على أرضه، فيعرف أنهم مهما فعلوا وقتلوا فلن يتمكّنوا منه، فهذا الشّعب يحترق ألف مرّة ليبعث من جديد ألف مرّة أخرى.

أدونيس:

أمام عظمة الكون وتغيّراته، وقف الإنسان منذ القدم حائرا والدّهشة تغشى عينيه، أخذ يفكّر، وفي رحلةٍ تأمّلية تاه لآلاف السّنين؛ في الأخير استطاع أن يكتشف سرّ هذا العالم، فآمن أنّ وراء كلّ ظاهرة تحدث آلهةً ما تتحكّم فيها. كان من بين الآلهة "تموز" وهو: «روح النّبات الذي يموت ويحيا في دورة مستمرّة باقية، بمعونة روح الخصوبة الكونية التي يتوقّف عليها انتعاش الابن القتيل واستعادته من العالم السّفلي» (6). وقد تعدّدت أسماؤه بتعدّد الثّقافات والشّعوب التي آمنت به، فعرفه الفرس والهنود باسم "**اندرا**"، أمّا السّاميون، فأطلقوا عليه اسم "**بعل**"، وهو الإله "**تموز**" عند

البابليّين، أما الفينيقيون، فعبدوا الإله "**أدونيس**". آمنت كلّ هذه الأمم بإله الخصب والنّماء، وأقامت لأجله الطّقوس، ولأجله ذرفت النّساء الدّموع وحلق الرجال الرّؤوس، لأجل أن يصعد الإله من الجحيم ويتحرّر من قيود عاشقته "**بيرسفونة**"★، وبمساعدة حبيبته الجميلة "**عشتار**"، يصعد مجدّدا إله الخصب إلى الأرض في فصل الرّبيع لتتفجّر الخضرة، فتورق الأشجار وتستفيق الأزهار، ويرقص الفرح على بساط الأرض المزدان بألوان الزهور الجميلة [7].

يعيش الشّاعر العربي صراعا شرسًا في هذا العصر الذي صوّر بامتياز جميع مظاهر الجدب والموت والرّكود، فاندثرت القيم وغابت الإنسانية، في الوقت الذي ساد فيه الصّمت وتسلّل الرّعب إلى قلوب الشّعوب العربية التي اختبأت طويلا، وآثرت البقاء في غياهب العبودية بدل العيش في فردوس الحرّية، ليأتي الشّاعر "علالة القنّوني"، ويعلن تمرّده فيتوجّه إلى عنترة، معلنا أنّ زمان العبودية قد ولّى، وآن الأوان لإعلان التمرّد وانتفاء الخوف من قلوب الشّعراء الذين تجرّعوا طويلا كأس الخوف، وقد صرّح بهذه الدّعوة في قصيدة "**يدعون عنترة**" التي يقول فيها:

«فيا عنتر الزّنج آن الأوانُ
فأظهر لقومك ما تضمرُ
ويكفيك صمتا ويكفيك ذلاّ
جرعت من الكأس ما لا يطاقُ
وإن لم تكسّره قد تُكْسرُ
فإمّا جنحتَ إلى السّيف حبّا لأرضك
فاحذر أُلي الغدر أن يغدروا
فإنّ الربيع ومثلَ الربّيع إذا حرّروك
فما حرّروا»[8]

توجّه الشّاعر بخطاب حادٍّ فيه من الحماسة ما يضرم نار التّمرد في نفس إنسان يائس، داعيا إيّاه أن يكسر أغلال العبودية وأن يصدح بصوته ويعبّر عن حريته المسلوبة

في زمان الصّمت الذي طالت يده جميع الأفواه؛ ولتموز نصيب من هذه القصيدة الجميلة، حيث دمج الشّاعر بين "عنترة" وبين "تموز"، فاتحدت شخصية البطل العربي الشّجاع مع روح الإله "تموز" الذي يتحرّر كلّ ربيع من الجحيم، لكنّ تحرّره هذا لا يدوم طويلا، فقد حُكم عليه بأن يحيا هذه الحياة إلى الأبد، فيحيا نصف حياته في الجحيم، ونصفها الآخر على سطح الأرض. وذلك هو حال الشّاعر الذي يودّع حياة الاستقرار ويودع في السّجن مخافة أن يمطر السّلطة بألسنة من نار تحرق سلطانها.

وإلى جانب شخصية "عنترة"، يستحضر الشّاعر شخصية أخرى وهي شخصية الشّاعر "تأبّط شرا"، وهو أحد الشّعراء الصعاليك، وهم خير مثال على التّمرد، فقد رفضوا العيش تحت ذلّ القبيلة، فداسوا قانون القبيلة وصنعوا لأنفسهم وبأنفسهم قانونهم الخاصّ متخذين من الصّحراء الواسعة ملجأ لهم، ثم يستحضر صورة "تموز" عندما يعود إلى الأرض التي ترتدي بعودته أجمل حلّة، فتتفتّح الأزهار على خطاه ويكسو الاخضرار أرجاء الأرض ليرسم أجمل صور الطّبيعة. وقد مزج الشّاعر هنا في تناغم وانسجام بين شخصية "تأبّط شرا" الذي ألبسه لبوس القداسة فأضحى "تموزا" آخر، فيقول:

«وذاك تأبّط شرّا يجول
تأبّط خيرا ولا نشعرُ
فلو سار يوما بأرض قفار
لظلّت على خطوه تزهرُ.. »(9)

يعود بنا الشّاعر إلى ذلك الزّمن الجميل، زمن الكلمات التي إذا ما انطلقت من فم الشّاعر كأنها سهم من قناة ثاقبة قد انطلق، الكلمات التي تصيب المعنى إصابة الحسام البتّار؛ أمّا الشّعراء فشأنهم شأن الملوك أو أجلّ قدراً، إذا ما تكلّموا لاذ الناس بالصّمت في خشوع، وإذا ما دبّوا فوق الأرض اشتعل سطحها بالزّهور. فأشعار "تأبّط

شرا" وغيره من شعراء ذلك الزّمن، أينما حلّت نثرت عبيرها لتحيي الأرواح الميّتة من جديد، فللبيان سحر، ومن الكلمات تولد الحياة ويتحقّق البعث بعد الموت.

عشتار:

لامس سحر عشتار★ قلوب الشّعراء، وفتنهم جمالها الأخّاذ، وأضحت قوّة الحب التي تتمتّع بها هي مصدر الإلهام الذي يستقي منه الشّعراء كلماتهم وأفكارهم؛ في القديم كان الناس يقيمون الطّقوس إرضاءً لها وتقرّباً منها لتنثر في أراضيهم الخيرات ولتزرع في أرحام نسائهم البنين والبنات، لا تزال "عشتار" لحدّ اليوم تحظى بالتّقديس والإجلال لدى الشّعراء الذين فتحوا لها قلوبهم لتسكنها، ومنحوها كلماتهم لتكون عربة تحلّق بها أينما تشاء، أمّا قصائدهم فرَوَتها غزلاً زاد من غرورها. في رحاب تونس الخضراء مكثت "عشتار"، وفي قصائد "علاّلة القنّوني" تألّقت، ومثل نجمة في سماء شعره تلألأت، وفي قصيدته: "عيناك" اختبأت بين كلمات هذه القصيدة التي تبدو في ظاهرها غزلا لامرأة جميلة، كان لها أثر على حياته؛ لكن إذا ما تأملنا معانيها وأمعنّا النّظر فإنّنا سنرى بوضوح معالم هذه المرأة التي ما هي في الأساس إلاّ وطنه الحبيب تونس؛ فاستلهم صفات عشتار واستعان بجمالها، لتكتمل صورة الغزل عنده، فيقول:

«عيناك فوق احتمالـــــي كالنّار فـــي الاشتعـــــال
إذا ظهـــرتِ أصبـــــتِ بوابـــــل مـــن نبـــــال
ومـــــا تأمّـلتُ فيـــكِ إلا وخـــــفتُ وبـالـــــي
فيـــا سمـــــاء تعـالـت بشمسهـــا في الجـــــلال
هـــدمت كـــلّ حـــــصوني لا تسرفـي فـي احتلالـــــي
فإنّنـــي من يـــــــراك فـــي الحسـن أرقي مثـــال
رأيت كـــلّ النّـــــساء أمامـــــك كـالهـــلال
ومـــن لها بعض نـــــور فمنـــــك بالاتّـــــصال» (10)

يهيم "علاّلة القنّوني" في هذا المقطع بجمال "عشتار" التي وقف عاجزا أمام حسن عينيها، مستسلما لها وقد أصابته بوابل من الحبّ الذي فتك بقلبه فخارت قواه،

فهي الشّمس نورها يخطف الأنظار، وطلّتها تسلب العقول وتأخذ القلب رهين حسنها، وقلب "علاّلة القنّوني" كان الفريسة.

أمام حسنها وجمالها، تسقط كلّ النساء اللّواتي هنّ هلال لم يكتمل بعد، ولن يكتمل فالزّمن يتوقف أمام الجمال الكامل.

ثم يخرج الشّاعر من معبد الجمال، وينهي تلاوة صلاته لعشتار التي تغزّل بها وحمّل قصيدته هته حبّه لجمالها الذي سحره واستوطن قلبه.

تحمل "عشتار" أسلحتها وتحلّق عاليا في الجوّ، وتتحوّل من فتاة رقيقة إلى مقاتلة شرسة ألقت بسهمها على الشّاعر فأردته قتيلا.

أوديسيوس:

استحضر الشّاعر "علاّلة القنوني" قصّة البطل الإغريقي "أوديسيوس"، وهو ملك **إيثاكا**، وهي جزيرة صغيرة تقع في بحر إيجة، شارك في حرب طروادة★، واستطاع بدهائه وذكائه أن يقتحم حصون المدينة المنيعة، ومهّد الطريق لجيوش إسبرطة لاقتحامها وسيلتهم لذلك، الحصان الخشبي العملاق الذي صنعه "أوليس"، حيث اختبأت الجيوش في جوفه، فكانت هذه الخدعة التي انطلت على جيوش طروادة؛ ويكون خاتمة الحرب التي دامت عشر سنوات بين طروادة وإسبرطة. وبعد انتهاء الحرب، عاد البطل إلى موطنه مجددا، وطريق عودته هو موضوع ملحمة هوميروس "الأوديسة" التي نظمها في القرن التّاسع ق.م؛ حيث كانت رحلة تحفّها الأخطار لولا حماية الإلهة "أثينا" للبطل "أوليس" للفظ أنفاسه الأخيرة في غياهب اليم. غير أنّه استطاع أن يتغلّب على العوائق الكثيرة التي واجهته، فقابل آكلي لحوم البشر، وأبطل سحر وتعاويذ السّاحرة التي حوّلت بحّارته إلى خنازير، وأجبرها على إعادة صورهم الإنسانية، وتفادى غرق سفينته أثناء اقترابه من جزيرة "السّابرين". وفي الأخير استطاع العودة إلى مملكته، ليفاجأ بخيانة من حوله، فوجد خمسين خاطبا ينتظرون موافقة زوجته الوفية "بينلوبه" التي ظلّت طوال فترة غيابه تنسج كفنه وتحلّ نسيجها في اللّيل حتى لا تتزوّج من غيره، فأشار عليها وهو

متنكّر أن توافق على الرّجل الذي يستطيع أن يلوي قوسا جبّارا، فلم يستطع أيّ أحد فعل ذلك، إلى أن اقترب أوليس ولواه ثمّ استعاد ملكه وزوجته وابنه "تليماخوس" (11).

استدعى الشّاعر "علاّلة القنّوني" البطل "أوليس" من مرقده واستضافه في قصيدته "حرث البحر"، لكن قبل ولوجه إلى عالمه الشّعري، جرّده من لبوس البطولة وألبسه ملامح إنسان عادي، همّه الوحيد هو الرّجوع إلى بيته والعيش رفقة زوجه "بنيلوبة" وابنه "تليماخوس"، فيعرض مشهدا دراميا مؤثّرا يصوّر لنا معاناة رجل لا تشبه ملامحه ملامح ذلك البطل الإغريقي الذي لم يتوانَ لحظة عن تقديم المساعدة معرّضا حياته وحياة رفاقه للخطر، وروح المغامرة تملأ قلبه الشّجاع الذي لا يهاب الموت بل يتحدّاه. أما أوليس بطل "علاّلة القنّوني"، فهو رجل ضعيف لا يعرف ما يريد، تلتهم عقله وفؤاده الأسئلة، همّه الأكبر النّجاة بحياته، فلم تهمّه حرب طروادة التي لا يدري كيف ألقى بنفسه في نيرانها المستعرة، فيقول:

«أحرث البحر لأنجو
من قتال لا يفيدْ
ما الذي يجعلني أفني حياتي
في ضلال وشرود
تاركا في البيت زوجا
معها ابني الوحيدْ ؟» (12)

تلك البطولة انقضى زمنها، وذهبت هباء في عصر مات فيه النّصر وأضحى ينبض بالهزيمة التي أثقلت كاهله، في زمن تقنّع بأقنعة النّفاق والزّيف، ولكن رغم هذا يحنّ البطل إلى بطولته الضّائعة وإلى سيفه الذي صدأ في غمده، فيقول:

«وأنا للحرب (أوليس Ulyss) الشديد
ولكم أهفو لسيفي وجوادي
ولكم يدفعني المجد التليدْ
غير أنّ الحرب نصر

وأراه بيننا اليوم فقيدْ» (13)

ثم يصرّح الشّاعر باسم "أوليس"، ويرسم لنا صورة ذلك البطل الشّيقي الذي تاه في البحر سنين طويلة، ضيّع شبابه واغتصب الغاصبون ملكه، أمّا زوجته فغرقت في بحر حزنها على زوجها الذي عاشت على أمل لقائه مجدّدا، وظلت مخلصة له طوال فترة غيابه، تتحجّج بغزْل قميص من الصّوف كي لا تنكح زوجا آخر، ثم يصوّر لنا مشهد ابنه الصّغير الذي عاش طفولته في حضن الألم جرّاء سخرية النّاس منه، فيقول:

«وأرى زوجتي تبكي
كلّ يوم تغزل الدّرع نهارا
ثم ليلا تنقض الغزل لتبدي أنّها لم تنته من غزله،
تحتال كي تربح وقتا
علّني يوما أعودْ
وأرى ابني ذليلا، يسخر الباغون منه وهو طفل
فإذا ما شبّ شلّته القيود» (14)

فيعلن رفضه للبطولة التي تجلب له ولعائلته الألم، فما نفع الألقاب بعد المعاناة، فأضحى خالي اليدين

لا يمتلك في جعبته الأفكار ولا الذّكاء لصنع الحصان الخشبي، فيقول:

«لا حصـــــان خشـــــبي لي لفـــــتح الحصـــــن أخفـــــي في ثناياه الجنودْ». (15)

فلا وجود له اليوم، وفي هذا إعلان لاستسلامه لأنّه يرفض الحرب التي تجلب معها الدّمار والبأس حتى لأبطالها، تلك الحرب التي تقتل الإنسانية وتصوّر أبشع مظاهر الوحشية. وفي هذا نلمح النّزعة الإنسانية التي قتلت روح البطل القويّ لتحوّله إلى إنسان ينشد السّلام، ويبحث عن العيش في أمن وأمان، فيعلن كرهه وعداءه للحرب رمز الموت والفناء والعبودية، فيقول:

«قد كرهت الحرب فيها أجد الإنسان وحشا
أو أراه جاثيا في ذلّة بين العبيد....
قد كرهت الحرب فيها
كلّنا بالموت نفنى
ومجانين تسودْ» (16)

ثم يسخر من غباء الحكام والملوك الذين قادوا البلاد إلى الهلاك لأجل سبب تافه، وهو إنقاذ "هيلينا" التي غادرت بملء إرادتها، وكم هي الحروب التي ثارت لأجل عينيْ امرأة. وقد كانت حرب طروادة التي دامت عشر سنوات، دمارا وشتاتا راحت جرّاها آلاف الأرواح التي أزهقت. لتتغيّر صورة "هيلينا" من امرأة فاتنة تنشد الحبّ وتمثّل صورة المرأة العاشقة، وتصبح في قصيدة "حرث البحر" رمزا للخزي والعار والخيانة، فيقول:

«باسم هيلان يقودون البلاد للهلاك
أ لأجل امرأة خانت أكون
أوّل الماضين للموت المبيدْ ؟» (17)

فيتخلّى عن لقب البطل ويرضى لنفسه لقبا آخر وهو لقب الفلاّح الذي هو أكثر ملاءمة لحال الإنسان في هذا العصر؛ فقد جاء ليحرث البحر، وهو في حرثه هذا سعيد رغم أنه يعرف أنه لا يحرث شيئا، وأنه لن يجني غير المشقة والتّعب، فهو سعيد وراض تمام الرّضا. فالمجد الحقيقي يكون في الوطن، والسّعادة الحقيقة تتمتّع بها بين أحضان الوطن مهما كانت الظّروف والأحوال، فيعلن أنّ زمن البطولة قد ولّى وذهب، فلا حاجة للقيام بمغامرات بطولية يكون ثمنها باهضا، يكفينا أن نحمي بيوتنا وأوطاننا، وتلك هي البطولة الحقيقية، لذلك يقول:

«أيها الدّاعي لقتل
لست أوليس أنا الفلاّح في الحرث الجديدْ
أحرث البحر وقل ما شئت عني، قل: جبان قل غبيّ وبليد

حرث بحري وأنا فيه عزيز
خيرُ من طروادة فيها أكون بطلا
بينما الذلّ على بيتي يسودْ» (18)

يخلع "علاّلة" زيّ البطولة عن أوليس ويغمسه في واقع الحياة ليصبح إنسانا عاديا، فيعلن عن نهاية زمن البطولة ويعلن بداية العمل الجادّ في الوطن.

جلجامش:

البحث عن الخلود حلم سكن قلب الإنسان منذ زمن بعيد، وسعى في طلبه بكلّ السّبل والوسائل. ولقد كانت أشهر القصص التي تروي رحلة البحث عن الخلود قصّة "جلجامش" ملك أور الأسطوري، وبطل الملحمة الشّهيرة التي حملت اسمه، وروت أحداث رحلته الطّويلة للبحث عن عشبة الخلود، بعد أن أدمى الموت روحه وفطر قلبه إثر فقده صديقه العزيز "أنكيدو"، أبى "جلجامش" الاستسلام للموت، فعزم على إيجاد العشبة السّحرية التي تعيد إليه صديقه من جديد، وتخلّصه من براثن الموت وتخلّص "جلجامش" من أسر الحزن، لتبدأ رحلة البحث الشّاقة وليشقّ "جلجامش" سبيل المتاعب والصّعاب، حاملاً في يدٍ قبسَ الإصرار، وفي الأخرى قبس الأمل، فلم تُثنه المخاطر ولم يردعه الخوف من تحقيق هدفه المنشود، ليتكلّل جهده في الأخير بوشاح النّجاح الجميل ويحصل على عشبة الخلود، لكن قبل أن يتمكّن من تحقيق مراده ويستعيد أنكيدو، وقع "جلجامش "في شراك النّعاس وغطّ في نوم عميق تاركا العشبة السّحرية ملقاة على الأرض، تفوح بعبق سحر جذب إليه أفعى كانت تجوب المنطقة، فلم تقاوم الرّائحة والتهمتها وبسحرها أضحت خالدةً في كلّ عام تخلع عنها رداءها القديم؛ أمّا جلجامش فعلِم علم اليقين أنّ الموت حقّ وأنّ الفناء مصير البشر المحتوم (19).

وظّف الشّاعر "علاّلة القنوني" أسطورة "جلجامش" في قصيدة "لبّيك يا عراق" التي رأى فيها نفسه "جلجامش" الذي بحث عن عشبة الخلود أملا في شفاء الميّت من سقم الموت:

«أنا قلقامش الشّعر المـــــريد وتستعر المروءة في جنانـــــي
أُقضّي العمر بحثا عن الخلود لأحيي الْميْت من ثاوٍ وفانـي» (20).

نظم الشّاعر هذه القصيدة قبيل دخول القوّات الأمريكية إلى الأراضي العراقية سنة 2003م، في ذلك الوقت لم يتخيّل الشّعب العربي ولا حتى شاعرنا ما الذي سيحلّ بالعراق بعد أشهر قليلة، فالأمل كان يغمر قلوبهم وإيمانهم القويّ بصلابة ذلك البلد الذي ظلّ راسخا ولم يتزعزع حتّى في اللّحظات الأخيرة، ذلك الأمل الذي فاض به قلب "علاّلة"، فانساب شعرا من لسانه الصّارم ليكون غيثا يروي القلوب العربية الظّمأى، وطوفانًا يفتك بالأعداء.

وجد الشّاعر في "جلجامش" القوة اللاّزمة، فلم يكتفِ باستدعائه، بل تقمّص شخصيته وأعلن عن ذلك صريحا، فهو "جلجامش" الذي إذا قال غاص في ثنايا القصيدة وجد في مملكة الشّعر عشبة الخلود التي تحيي الأرواح العربية من موتها، وتعيد إليها الحياة والكرامة لتنهض وتنفض عنها العار والخزي الذي التصق بها فأضحى صفة من صفاتها.

زرقاء اليمامة:

بحث الشّعراء العرب في هذا العصر عن شخصيات أسطورية عربية انبثقت من فكر عربي، فشقّوا دروب البحث ووجدوا امرأة تبصر على مسيرة ثلاثة أيام، وتدعى "زرقاء اليمامة" ★، وهي عربية من نجد من جديس من أهل اليمامة، وجد الشّعراء ضالّتهم في شخصها فراح كلّ واحد ينظم قصيدة حملت بين طيّاتها اسمها أو صفة من صفاتها.

وقد استعان الشّاعر "علاّلة القنّوني" بهذه الشّخصية في قصيدة "حدّد مقرّك"، فيقول:

«يدي ويدك
تعال لنُسْرِج هذي العواصف خيلا ونركبها لاقتحام الردّى
ولو قتلوك، لفضت بحارا
ولو أحرقوك انفجرت لظى
فحدّد مقرك حدّد مقرّك
لنعرف من أين يرمي العدى
رأيت بعينيك "زرقاء" فانظر
فلِلْعَربِيِّ جليُّ الرّؤَى» (21)

أما عن تجليات "زرقاء" كعنصر أسطوري في هذه القصيدة، فقد طفا اسمها على مستوي البنية السّطحية للنّص، وقد بوّأ عينيها مكانة مركزية. وتحيل قصّة "زرقاء اليمامة" على ثلاث دلالات أوّلها: دلالة على رؤية الحقيقة وبُعد النّظر.

أما ثانيها: فهو دلالة على الخديعة والمكر الذي أعدّه الأعداء للزّرقاء وقومها.

أما ثالثها: وهو رؤية الحقّ وغضّ الطّرف عنه.

وقد أسقط "علاّلة" هذه الدّلالة على الواقع العربي وعلى الإنسان العربي خاصة، فكلٌّ يرى حقيقة واقعه ويعرف الوضع الأليم الذي آل إليه الوضع السّياسي والاجتماعي والثقافي، ويعرف تماما سبب علّته؛ لكن مع هذا يصرّ أن يغضّ الطرف، فلا يبادر للتّغيير وفي غياهب التّهميش يغطّ في سبات عميق.

السّندباد:

من أجمل الكتب كتاب "ألف ليلة وليلة" التي غزت العالم، ونثرت سحرها في أرجائه، وتغلغلت في النّفوس، وفي القلوب أثّثت مملكتها، تلك القصص التي فاضت إلهامًا روى العقول أفكاراً، والقلوب إحساساً ليُولد من جمالٍ جمالٌ، فكم من أديب استلهم كتاباته من قصصها، وكم من موسيقيٍّ أُلّفت مقطوعاته الجميلة بإلهام منها.

لامس سحر اللّيالي قلب الشّاعر "علاّلة" من بين خمسمائة وثمانية وستّين قصّة انتقى قصّة "السندباد" التي تروي قصّة الشاب العراقي الذي ألقى به طموحه وحبّه للمغامرة في قلب اليم، لتبدأ رحلة المغامرة الشّيقة الخطيرة، فتغلّب على المخاطر والصّعاب التي روّضها بذكائه وقلب الموازين لصالحه.

زار "السّندباد" الكثير من الأماكن السّحرية والتقى بالكثير من الوحوش أثناء إبحاره في سواحل إفريقيا الشّرقية وجنوب آسيا في سبع رحلات.

استحضر "علاّلة" "السّندباد" في قصيدة "أجمل النّساء" التي قال فيها:

«حوّاء في بلادي ولست لي حواءْ
في كلّ أبديت، أو كان في الخفاء...
أشم فيك الهند والسّند وطيف
سندباد
رمته الأمواج في جزر النّسيانْ ... » (22)

طفا "السّندباد" على سطح القصيدة فورد اسمه صريحا، حيث استدعى الشّاعر "السّندباد" لكن هذه المرّة سطر له نهاية جديدة، وهنا تكمن جمالية توظيف هذه الشّخصية عند الشّاعر، فالسّندباد قام بسبع رحلات، حقّق من خلالها الثّروة والنجاح؛ وفي الأخير وقع أسير جزيرة سمّاها الشّاعر جزيرة النّسيان التي لن يعود منها أبدا، فالنّسيان مقبرة اللاّ عودة، وهو مصير "السّندباد" الذي أحبّ المغامرة، أمّا شاعرنا فلا يهوى السّفر والعيش في كنف الغربة، وكلّ ما يريده هو العيش بين أحضان بلده الحبيب تونس.

اللاّت:

آمن العرب أيّام الجاهلية بوجود الآلهة، وبتأثيرها على حياتهم، فهي التي تشفيهم إذا حلّ بهم السّقم، وتغدق عليهم الخيرات أيّام القحط، وترعى تجارتهم، وتحميهم في رحلتي الشّتاء والصّيف؛ لذلك نصبوا في مكة وهي أقدس مكان للعرب،

الأصنام والأوثان التي عبدوها تقرّبا لروح الإله الذي يسكنها لاعتقادهم أنّه يصطاف داخلها أيام الحرّ الشّديد ويشتو فيها أيّام البرد القارس.

ولم تعظّم قريش بمكّة، ولا من أقام بها من العرب صنما من الأصنام تعظيمها لعزّى ومناة واللاّت بحيث بات لهذه الآلهة من الشّبهرة ما لم يكن لغيرها من الأصنام. فمناة هي «إلهة القضاء والقدر، وهي تقابل إلهة الحظّ المخلّص عند الإغريق. واللاّت وتُعرف أيضا بالرّبة هي إلى حدّ ما تشبه إلهة الفلك اليونانية عند هيروتيس، بل هي الأمّ الكبرى للآلهة، ووهي شبيهة بالإلهة عشتروت عند السّاميّين سكّان الشّمال. أمّا العُزّى، أي الإلهة الكلّية القدرة والعزّة، فهي صورة للكوكب السّيار المعروف "الزّهرة" أو فينوس عند اليونان. قال فيها عمرو بن الجعيد:

«إنّي وتركي وصل الكأس لكالذي

تبرّأ من لاتٍ وكان يدينها» (23).

وكانت "اللاّت" مصنوعة من الحجر على شكل مربّع وهي قرينة العزّى ومناة، وهم حسب زعم العرب بنات الله وتعود إلى قبيلة الطّائف من ثقيف وحظيت بمقام التّبجيل من قريش كذلك (24).

في ديوان "كاف ونون"، وردت "اللاّت" مرة واحدة في قصيدة "حدّد مقرّك"، وجاء اسمها صريحا في قوله:

«وإني بلمس أكاد أضيء

فحدّد لرؤيتك اليوم أفقا

لأّني إذا ما نظرت سأبني لعينيك في الغيب بيتا

فربّي وربّكم ربّ يُصِرُّ

على خلقِ كونٍ بقلبٍ ونبضٍ

ومنذ صبأنا عبدناه عشقا

فلا تقرب اللاّت دون حسام» (25)

استدعى الشّاعر "اللاّت"، ووضعها على سطح بنية قصيدته، إذ وردت في نهاية المقطع الأوّل، بولوج الربة إلى قصيدة "علاّلة" سقطت عنها كلّ قيم التّقديس وخلع عنها لباس الألوهية لترتدي لباس الدّناسة والمكر والخداع.

الهوجل والهوبر:

يذهب بعضهم إلى الشّعر نشأ من معتقدات أسطورية وسحرية، وذلك لروعة البيان الذي سحر القلوب وبهر الألباب، فاعتنى العرب بالشّعر عناية فائقة، وحظي الشّاعر بالتّقدير والتّبجيل، وكان مقامه مقام السّيد في القبيلة، فإذا دبّ على الأرض بادره القوم بالتّسليم، فهو النّاطق باسم القبيلة في المحافل والفارس الأوّل في ساحة الوغى، فلا يبدأ القتال من دون أن يتلو الشّاعر قصائده على مسامع الفرسان لتشحذ نفوسهم عزيمة وتسرى في أبدانهم القوة.

حاول الجاهلي أن يفهم سحر الشّعر، والسّبب الذي جعل بعض النّاس يتمتّعون بهذه الملكة دون غيرهم؟، فتصوّروا أن الشّعر في حقيقة الأمر إنما هو وحي يلقي به الجنّ على أفئدة الشّعراء، فينساب على ألسنتهم شعرا، وكان وادي عبقر موطن الجنّ، واعتقد العرب آنذاك أنّ لكل شاعر قرين من الجنّ يلهمه، ونسبوا الشّعر الجيّد إلى جنّي يدعى الهوبر، أما الشّعر الرّديء، فهو لجنيٍّ اسمه الهوجل [26].

دعا الشّاعر "علاّلة القنّوني" كلاّ من "الهوبر" و"الهوجل" اللّذيْن لم يرفضا دعوته على مستوى بنية القصيدة السّطحية، وتربّعا على أبيات قصيدة "لبيك يا عراق"، حيث قال:

«دعاني لوجد والشّوق اعتراني فلبّيت الدّعاء بلا توانـي
ألا يا هوبرا طِرْ بي فإني إلى أرض العراق هفا كياني
وكن في خاطري أنّى حللت ولا تترك لهوجلكم لساني
فإنّي قاصد أهل النّبوغ عباقرة البلاغة و البيان
و أنت لأعلم الجنّ بقوم إذا ركبوا اعتلوا رأس الزّمان
هنا يا هوبرا أرض الرّشيد ومن جمع الأقاصي بالأداني» [27]

مرّت الأمة العربية بظروف سياسية صعبة، تغيّر على إثرها مسار الشّعوب العربية، وذلك منذ تاريخ نكبة فلسطين عام 1948م، مرورا بتاريخ النّكسة الذي سطرته هزيمة حزيران عام 1697م، وصولا إلى أزمة العراق عام 2003م، وكان هذا الحدث من أشدّ منعطفات تاريخ الأمّة العربية خطورة وأكثرها إيلاماً، وبسقوط العاصمة بغداد للمرّة الثانية –بعد أن دنستها خيول المغول قبل قرون–، باتت تهدّها الآن صواريخ قوّات المارينز الأمريكية.

قُبيل دخول القوّات الأمريكية إلى الأراضي العراقية، اهتزّت البقاع العربية بهتافات المناصرين، فدبّ الأمل في النّفوس؛ أمّا الشاعر "علاّلة القنوني" فقد ناصر العراق بلسانه واقتحم ساحة الوغى يحمل بين يديه أوراقه المرصّعة بمداد كلماته لتكون وابلا من أسهم متقدّة. ولأجل هذا الحدث العظيم استدعى جنّ الشّعر هوبرا ليحمله إلى العراق، وليهبه من عنده إلهاما، ليبعد الهوجل عن لسانه فيصيب الكلام، جاء هوبر ليستمع إلى أحاديث "علاّلة" الذي اتّخذه نديما له.

كاليغولا:

كاليغولا شخصية تاريخية، اتّخذت مع مرور الزّمن ملامح أسطورية، باتّصافها بصفات لا تمتّ إلى الإنسان العاديّ بصلة، وهو إمبراطور روماني حكم روما مدّة أربع سنوات، لقي فيها الرّومان من الذّل والغطرسة والبطش ما يكفيهم ويشبعهم بأسا وشقاءً، فهو أشهر طاغية في التّاريخ الإنساني، عُرف بوحشيّته وجنونه وساديّته، وله قصّة مشهورة مع الشّعراء حين أقام ذات مرّة مسابقة بينه وبين الشّعراء، فوقف الشّعراء بين يديه يُسمعونه قصائدهم، وفي كلّ مرّة يستمع فيها إلى قصيدة لا تنال إعجابه، يقوم بقتل صاحبها، وهكذا، إلى أن قتل جميع الشّعراء، في الأخير يقوم ويضع تاجه على كرسيّه ويقول قصيدته ليعلن أمام الملأ أنّه الفائز [28].

في هذا العصر، يقوم الشّاعر "علاّلة" باستحضار شخصية الإمبراطور السّفاح مجدّدا ويوقظه من مرقده، ليمنحه الحياة على أوراق قصيدة من قصائد ديوانه التي حملت

اسمه، وهي قصيدة "كاليغولا والشّعراء"، لعيد تصوير أحداث قصّة "كاليغولا" مع الشّعراء لا ليسرد لنا وقائعها، بل ليقول ما يختلج في نفسه عن طريق شخصية "كاليغولا"، وليعبّر عن القيم التي ينبغي على الشّاعر أن يجسّدها في أشعاره في محاولة لفهم عبقرية سفّاحٍ حيّرت أعماله العالم. ومن مبادئ الشّعر التي طالب بها هذا الإمبراطور –كما تتجلّى في قصيدة" كاليغولا والشّعراء"–، قول الشّاعر:

«هاتوا بديع شعركم
أنّي أحبّ الشّعر صوتا لا صدى
إني أحبّ الشّعر إعجازا يُرى
إني أحبّ الشّعر شمسا تستوي فوق الثّرى... » (29)

تجلّى "كاليغولا" كعنصر أسطوريٍّ في القصيدة من خلال تقنية البناء الفنّي، حيث عمد الشّاعر "علاّلة" إلى إعادة بناء قصّة الإمبراطور الرّوماني مع الشّعراء، لكن وفق ما تسرده مخيّلته، فتقمّص الشّاعر دور"كاليغولا"،وأعاد نسج الخطاب الذي وجّهه "كاليغولا" إلى الشّعراء يوم دعاهم إلى السّباق الذي جرى بين الطّرفين. فتخيّل الشّاعر خطابا آخر مضمونه جملة من الشّروط طالب بها "كاليغولا / علاّلة" الشّعراء، فأراد أن يكون الشّعر صوتا مسموعا يدوّي ليحرك الأفئدة ويوقظ القلوب الميّتة من مرقدها، وأن يتوجّه بخطابه إلى الناس لا أن يأنس بسماع صدى كلماته يردّدها في الفراغ، لأن الشّاعر رسول الأمة يحمل بين ثنايا قصائده رسالة تلتفّ بقوة هائلة تحقّق المستحيل والمعجزات، ويرتقي عاليا في السّماء ليكون الشّمس التي تنير الكون بنور الحقّ واليقين، فيبدّد ظلام الجهل والفساد ويعرّي الواقع من الزّيف والوهم. ويكمل سرد القصّة، ويصل إلى الوقت الذي ثار فيه غضب "كاليغولا" وجنونه على الشّعراء، فيقول:

«... ثمّ وبعد أن وعى
خاطبهم في صرخة كالرّعد في أوج الشّتاء
"جعجعة أنتم ولا شعر يُرى
طبل يدّق سمعنا

وجوهر الطبّل خواء» (30)

لجأ الشّاعر "علالة القنوني" إلى شخصية "كاليغولا" ليمرّر من خلالها رسالته ذات الخطاب اللاّذع إلى شعراء العصر، ليصب عليهم عواصف غضبه ويلحق بهم العذاب الذي ألحقه "كاليغولا" بالشعراء قديما، فهم شعراء الخزي والعار، شعرهم مثله كمثل الطّبل يصدر أنغاما، لكنّ جوفه خواء، فيلقون أشعارهم بكلمات رنّانة تهتزّ لها الأجساد طربا دون العقول والقلوب.

وهكذا، لجأ الشّاعر "علاّلة القنّوني" إلى الأسطورة للتّعبير عن مواقفه وآرائه، فكانت الأسطورة قلمه ولسانه.

خاتمـــة :

لقد هام علاّلة القنّوني بالأسطورة، وقد وشّى بها قصائده، فأثراها بقوى الإلهيْن: أدونيس، وعشتار؛ وبشخصيات تاريخية أخذت ملامح أسطورية مع مرور الزّمن مثل كاليغولا. وقد حلّق على أجنحة قصائده متجاوزا كلّ الحواجز، فلم يترك حضارة إلاّ وأطلّ عليها، وامتلك في يده ساعة الزّمن يديرها وقتما شاء.

لجأ "علاّلة" إلى الأساطير لمجابهة واقعه الأليم، وليتصدّى لمظاهر الفساد والظّلم والتّعسف، فبدا من خلال قصائده فارسا شجاعا لا يهاب الرّدى ولا جور الحكام، يشقّ دربه نحو هدفه الأسمى، وهو إيقاظ الشّعوب العربية من سباتها، والدّفاع عنها ضدّ أعدائها، وكثيرا ما توجّه بخطاب شديد اللّهجة إلى المثقّف باعتباره الشّخص الوحيد القادر على تغيير الواقع.

تناول الشّاعر الأساطير بأوجه مختلفة، فمرّة تأتي صراحة، ومرّة أخرى تأتي مضمرة، تترك خلفها آثارا ليتبعها القارئ إلى أن يجدها.

كما وظّف أساطير غربية وأخرى عربية لترجح كفّة الميزان في شعره للأساطير الغربية على حساب الأساطير العربية، وربما هذا راجع إلى قلّة النّماذج الأسطورية العربية في مقابل مثيلاتها الغربية، وكان السّبب الرئيس وراء توظيف الشّاعر "علاّلة" للأساطير،

ذلك الكمّ الهائل من الدّلالات التي تتمتّع بها الأساطير والتي من شأنها التّعبير عن تجربة الشّاعر الفنّية، وتعكس الهمّ الكبير القابع في قلبه وكيانه إزاء واقع الشّعوب العربية.

الهوامش:

★علالة القنوني: شعر تونسي معاصر، عضو اتّحاد الأدباء العرب، وعضو اتّحاد الكتّاب التّونسيّين، وعضو الهيئة المديرة لفرع "بنزرت".

من آثاره: "يرفض البحر أن يكون جدولاً" و"كاف ونون". وله: "المشط"، "دعوا الطّيور تغنّي"، وهما مسرحيّتان شعريّتان، و"رجل الشّعر"، و"المنصف الوهّابي بين الصّبورة والتّراث"؛ وأخيرًا "بردة العمر"، وكلّها أعمال في انتظار النّشر.

(1) خالد عبد الرؤوف الجبر: رمز العنقاء في شعر محمود درويش، مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب، مجلد9، العدد 4ب، 2012، ص1137.

(2) د. محمد عجينة: موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 1994، ص336. بتصرف.

(3) ديانا ماجد حسين: الأسطورة والموروث الشعبي في شعر وليد سيف، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية كلية الدراسات العليا، فلسطين، 2013، ص111.

(4) علالة القنوني: ديوان" كاف ونون"، اتحاد الكتاب التونسيين، الطبعة الأولى، د.ت ، ص6. .

(5) المصدر نفسه: ص53.

(6) فراس السواح: لغز عشتار الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، دار علاء الدين، دمشق، سوريا، الطبعة.8، 2002، ص292.

★ بيرسفونة: ملكة العالم السفلي، وقد خطفها هيدس ابن كرونوس ورباها حيث كانت تلعب مع بنات المحيط أوقيانوس... فخرج هيدس وخطفها إلى باطن الأرض عالم الموتى. وعلى حين غرة جفت ينابيع الخصب وماتت المزروعات ولم تتكاثر الحيوانات... ينظر:

آرثر كورتل: قاموس أساطير العالم، تر. سهى الطريحي، دار نينوى، دمشق، 2010، ص150.

(7) Hélène Tuzet : *Adonis*, Dictionnaire des mythes littéraires, p25

(8) علالة القنوني: ديوان كاف ونون، ص23-24.

(9) المصدر نفسه: ص25.

★ عشتار: هي آلهة الحبّ والجنس والجمال عند البابليّين وتقابلها عند السومريين "إنانا"، وعند الفينيقيين "عشتروت" وعند اليونانيين "أفروديت" وعند الرومان "فينوس"، وهي نجمة لصباح والمساء معا، رمزها نجمة ذات

سبعة رؤوس منتصبة على ظهر أسد، على جبهتها الزهرة، سلاحها السيف والصولجان ذو الرأسين، رفضها "جلجامش" رغم محاولتها إغواءه... نزلت إلى جحيم العالم السفلي "أرض اللاعودة" و لكنها عادت منه..
يُنظر:

Anne Déborah Lévy-Bertherat : *Ishtar*, dictionnaire des mythes littéraires, sous la direction du Pr Pierre Brunel, éditions du Rocher, Paris 1988, p807.

(10) علالة القنوني: ديوان "كاف ونون"، ص31.

* حرب طروادة: بدأت قصة هذه الحرب الشهيرة التي امتزجت فيها الأسطورة بالواقع، عندما وقعت هيلين الفاتنة زوجة الملك العظيم منيلاوس ملك أسبرطة القوية في حب باريس نجل بريام ملك طروادة التي كانت تنافس أسبرطة في الجاه والنفوذ، فقام العاشق الولهان باريس بخطفها واصطحبها معه إلى طروادة، وقد ذهبت معه مختارة طائعة، ولم يتوقف الزوج المطعون الملك منيلاوس مكتوف اليدين إزاء الإهانة والعار الذي لحق به، لتثور بعد ذلك ثائرته ويتوجه رفقة جيوشه وجيوش الممالك اليونانية المجاورة التي تضامنت معه، عازما على دك حصون طروادة ورد زوجته المخطوفة، فنشبت بين الطرفين معارك ضارية دامت طوال عشر سنوات. يُنظر:
أرثر كورتل: قاموس أساطير العالم، ، تر. سهى الطلايحي، ص145.

(11) عماد حاتم: أساطير اليونان، الدّار العربية للكتاب، الجماهيرية اللّيبية العظمى، 1988، ص (600-629) بتصرف

(12) علالة القنوني: ديوان "كاف ونون"، ص65.

(13) المصدر نفسه، ص:66.

(14) المصدر نفسه: ص69.

(15) المصدر نفسه: ص69.

(16) المصدر نفسه: ص 70.

(17) المصدر نفسه: ص 70.

(18) المصدر نفسه: ص 71.

(19) آرثر كورتل: قاموس أساطير العالم، تر، سهى الطريحي، ص 35. بتصرف

(20) علالة القنوني: ديوان "كاف ونون"،ص50.

* زرقاء اليمامة: امرأة باليمامة تبصر الشعرة البيضاء في اللبن وتنظر الراكب على مسيرة ثلاثة أيام، وكانت تنذر قومها الجيوش إذا غزتهم فلا يأتيهم حيث إلا وقد استعدوا له، حتى احتال لها بعض من غزاهم، فأمر أصحابه فقطعوا شجرا وأمسكوه أمامهم بأيديهم، ونظرت الزرقاء فقالت إني أرى الشجر قد أقبل إليهم، قالوا لها قد خرفت ورق عقلك وذهب بصرك، فكذبوها وصبحتهم الخيل، وأغارت عليهم، وقتلت الزرقاء.
يُنظر: ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج 3، بيروت ، دار الكتب العربي، 1990، ص 83-84.

(21) علالة القنوني: ديوان "كاف ونون"، ص53.

(22) المصدر نفسه: ص ص87- 88.

(23) طاهر بادنجكي: قاموس الخرافات والأساطير، جروس برس، طرابلس، لبنان، ط 1 ، 1996، ص: (192-194).

(24) د. محمد عجينة: موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، دار محمد علي للنشر (تونس)، دار الفارابي (بيروت)، 2005، ، ص191. بتصرف.

(25) علالة القنوني: ديوان" كاف ونون"، ص ص61-62.

(26) نقلا عن: http:// Wikimedai foundation.org . بتصرف

(27) علاّلة القنّوني: كاف ونون، ص 47.

(28) نقلا عن: http:// Wikimedai foundation.org . بتصرف.

(29) علالة القنوني: ديوان "كاف ونون"، ص 10.

(30) المصدر نفسه، ص 11.